العولمة: هل هي انفجار الهوية؟

إبراهيم محمود(*)

توطئة

في ظل العولمة (هذه المفردة (الجمهرة) الجديدة في اللغة العربية، والتي بُدىء باستعمالها منذ عقد من الزمن تقريباً)، هذه التي تشهد على تجلّي قيم متفاوتة على الصعد كافة، وتتحدث (وهي الفاعلة) عن مناطق نفوذ لأخرى، وتغيّرات متعددة الاتجاهات، واستحداثيات جديدة: مستقبلية، وأنماط علاقات جديدة بين بني البشر، والجماعات البشرية، والدول، وبالنسبة إلى مفهوم الإنسان نفسه، كيف يمكننا الحديث عن (مصير) الهوية؟ وباختصار: العولمة: هل هي انفجار الهوية؟

لماذا السؤال هذا؟

لأن العولمة ـ كما تقدم ـ هي صياغة جديدة لأهم الأفهومات (بالمعنى المعرفي والاجتماعي والكوني كذلك)، ولأول مرة راهناً، تلك التي بقي الإنسان مستمتعاً في ظلّها، بخدر ثوابت المعاني، وسبات المطلقيات، ولأول مرة، ومنذ عقد من الزمن (عربياً) خصوصاً، أدرك، حتى وهو مسكون بنشوة المطلقيات المفاهيمية، أن عصراً جديداً قد حلّ، وأن أبوّة العولمة التقانية الصارمة، صارت تتخلّل حتى منظومة قيمه اليومية دون استئذان؛ إذ لم يعد هناك أحد خارج فضاء وأرضيّة العولمة، في جملة أساليبها وطرائقها المعلوماتية والردعية والإنتاجية والاستهلاكية. وفي ضوء ذلك صار سؤال الهوية ضرورة لازمة، بكل تعددية أبعادها، وبنى عناصرها التاريخية والاجتماعية والمعتقدية. وسواء كانت عبارة العولمة مرادفة لأصلها الفرنسي Mondialisation، وهي من العالم Monde، أو لأصلها الإنكليزي، ومرجعيتها الأميركية: تصوراً وتجذراً Globalization (المشتقة من الكرة الأرضية) Globe... إلخ، فهي في جوهرها صيغة

(*) باحث وكاتب ـ الجمهورية العربية السورية.

تجنيسية للكل من خلال الجزء، حيث يدخل عنصر القوة الموجّهة، دوراً أكبر في إخراجها بالصورة السائدة.

الهوية كما كانت وكما هي

لم تعد الهوية ـ كما كانت ـ في صيغتها الأرسطوية المألوفة مرادفة للماهو هو (مبدأ الهوية): آ هي آ ـ انطلاقاً من مفهوم التماثل identité، حيث تتميز الهوية في هذا الإطار بوحدة عناصرها واستمرارية هذه العناصر بالخصائص المميّزة لها، وهي تنغلق على علاماتها الفارقة التي تسم الخصائص المذكورة[1].

هذا التحديد الأفهومي الذي ظل بدهية Axiome، زمناً طويلاً، حتى في حقل الثقافة العربية ـ الإسلامية، إذ نقرأ تعريفاً لها عند الشريف علي بن محمد الجرجاني، بأنها «الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق»[2].

ويستمر هذا التعريف بكل تفاؤليته المفهومية المفرطة، ومن الداخل، حتى الآن هنا وهناك[3]. لكنه تعريف لا يلبث أن يتزعزع من خلال التحولات الكونية، بفعل تنامي سلطة السلع الرأسمالية، وآليات العمل الرأسمالية في طورها الإمبريالي التكنتروني، حيث يبرز الإنترنت راهناً الوليد الأحدث الدال على العولمة المذكورة، ومن ثم نلاقي زحزحة لجملة المفاهيم التي كانت تكوّن الهوية حديثاً وراهناً، في ما يخصّ مفاهيم كثيرة، والهوية ضمناً[4]! ففي زحمة المبتكرات التقانية من ناحية، واختراق الحدود القومية بطرق مختلفة (الأنترنت خصوصاً)، وسيطرة وسائل الاتصال والإعلام، والتقاط أدق الصور، ونقلها إلى شتى أرجاء المعمورة، والدخول في عصر الشفافية التي جعلت الأشياء لحدة سطوع علاماتها، طيّاتية، متعددة العلامات، تتجاوز كل تأطير وتعريف وتوصيف لها من ناحية ثانية، صار بالإمكان رؤية كل ما نعيشه، وهو أشبه بدوامة حلزونية ومتشظية، ولكن دون رؤية ماذا يجري بدقة، فالقوة الحسّية لم تعد قادرة على ملاحقة (حقيقة) ما يجري بدقة، فحلت الآلة السوبرتقنية لتكون هي البديل الفعلي، وتجلّت مراكز سوبر عملاقة، مراكز معلومة تجهر بكونيتها، وأخرى رحالة متعددة الأوجه شركائية، ليست ثابتة موصولة بالأولى، وتعتمد عليها، قوميتها هي الأرباحية،

---

(1) نلاحظ أن idendité تعني الهوية والتماثل والتطابق والوحدة. والمفاهيم الثلاثة الأخيرة تخص (الهوية). كما جاء ذلك في قاموس **المنهل**، دار الآداب، بيروت.

(2) أنظر **كتاب التعريفات**، دار الكتب العلمية، ط بيروت، 1995، ص 257.

(3) أنظر مثلاً ما جاء في كتاب **الهوية والتراث، ندوة**، ط 1، دار الكلمة، بيروت، 1984. إذ بالرغم من مرور أربعة عشر عاماً على هذا التاريخ، نجد المفهوم المشار إليه، مأخوذاً به لدى الكثيرين: مثقفين وسواهم من المشتغلين بالتراث وغيره.

(4) أنظر حول ذلك ما كتبه عبد السلام بنعبد العالي في **التراث والاختلاف**، ط 1، دار التنوير، بيروت، 1985، ص 81 وما بعد. وأنظر حول ذلك ما كتبه Jaques Derrida في: **Le monolinguisme de l'autre**: **احادية لغة الآخر**، Galilée, Paris, 1997.

ونزع الهويات الثابتة، وهي في حركتها متعددة الاتجاهات، وهي في كل ذلك تسعى إلى إحالة الأوطان كلها إلى أسواق لسلعها ورموزها، ودون نسيان مواقعها...

في ظل هذه الزحزحات الكبرى، تأتي الهوية، لتشكّل الحالة الأكثر قابلية للتغيُّر المفهومي من الداخل. فالإنسان الذي دخل عصر الكونية، أو أدخل به إلى هذا العصر هو إنسان مختلف عن سلفه الذي كان يتمتع بيقينية منافحة، لم تكن تخلو من قوة ذاتية تحميه في تمايز كينونته: انتماء إلى مكان، وارتباطاً بمذهب معين، ولكنه منزوع السمات المذكورة برغبة منه، أو دون رغبة، إنه مختلف مفهوماً وتصوراً وحقيقة وموقعاً ولغة ومعنى... إلخ...

هل نحن بصدد انفجار الهوية إذاً؟

عندما نتمعّن في بنية المتغيرات، وعلى صعيد عالمي، وكيف تغيّر العالم من حولنا وفينا، وتغيَّرنا بالمقابل، ندرك إثرئذٍ ما نحن عليه من تغيّر. فأفكارنا التي نتلذذ بها، ونسعد بوجودها، وهي تعرّف الآخرين بنا وقتاً طويلاً نسبياً، وهي تخصّ كينونتنا الاجتماعية والإثنية لم تعد قادرة على مدّنا بذلك الشعور المذكور، لأنها هي ذاتها فقدت قيمتها الرمزية فاعلياً. لقد صرنا في مواجهة مع أنفسنا بالتالي، بحيث صارت أفكارنا هي ذاتها غرائبية وغريبة عنا، لا بوصفها غير مفهومة، وإنما باعتبارها غير منتجة، وهي باستمرارها تعيقنا عن فهمنا لما يجب القيام به، ولما ينبغي الاستعداد له. فالعولمة التي تعني الاجتياح الكوني لكل ما هو سرمدي: أفكاراً أو أحلاماً أو رموزاً مشحونة بالقوة الحامية للأصل وللحقيقة المنشودة والمعتقد والتمايز، بلغت درجة من الوقاحة (إن جاز التعبير) بحيث ألغت كل اليوتوبيات الكبرى التي اختزنها الإنسان في ذاكرته، أو تجلّت في لاشعوره الفردي والجماعي، وواجهته بحقائق لم تكن متوقعة، حتى بالنسبة لأولئك الذين يُعتبرون (أبطالها) الفعليين، من خلال نوعية التغيرات الهائلة التي ترتّبت على انتشار مفاعيلها الثقافية، والنتائج التي ولّدتها مداميكها التكنولوجية، ووضعت العقل نفسه أمام تحديات جديدة وبقوة! ولعل مفهوم (المابعدية) الذي بات مألوفاً بدوره، لكثرة استعماله، هو الذي يفصح عن قوة التحديات تلك، وهي تلزم العقل بترتيب مفاهيمه، لا بل وإعادة النظر في حقيقة المفاهيم تلك، ومدى جدواها، وفاعلية دلالاتها، ومدى نجاعتها، وهو يعيش (ومن الداخل) عالم مفاهيمه الذي من ناحية رفعه إلى مستوى الحقيقة المستقلة عمّا يجري، باعتباره منتج رموز، وسكنى أفكار، ومأوى معانٍ، يمور بالمتغيرات، ومن ناحية ثانية جعله في مستوى الاتصْال والتواصل والتفاعل مع ما يجري. فثمة حراك مستمر لمعانيه ومفاهيمه، وثمة مواجهة قوية وعنيفة وصاخبة وخفية بين تصوراته وأفكاره المعلومة، وما يعتبره حقائق جليّة. لقد صار العقل عارياً في بيداء واقع، وخارطة محكومة بملايين الاتجاهات، ولكنها خطرة، مهدّدة

له معنىً، تحضّه على التفكير في ميكانيزمه المعتبر معقولاً. فمفهوم (المابعدية) يترجم واقع حال لاتزال إفرازاته تنطق بأكثر من مشهد كارثي، وينبىء بـ (ما سيأتي)، والذي ينذر بأكثر من توقع أو احتمال لا تحمد عقباه في ضوء المعاش. ثمة كاوسية (عماء) عصري جديد، يتشكّل ويشكّل إنساناً جديداً. ومن هنا نقرأ عبارات بليغة بدلالتها، من مثل (مابعد الحداثة، مابعد المجتمع الصناعي، مابعد البنيوية، مابعد التاريخ، مابعد الفلسفة...)[5]، وهذه مشغولة بذلك القلق لا المعرفي، وإنما الوجودي الذي يخصّ الإنسان كمعنى. وهنا تتحول الهوية ـ في أصلها ـ إلى الـ (هو)، إنه الآخر، الغائب، اللاممتلك، العصيّ على التحديد والتعريف به؟! فإذا كانت الهوية تعرف في حدودها الخارجية، ومن خلال المحسوس والمعطى، إلا أنها تتجاوز هذه الحقيقة المعقلنة، فحقيقتها هي في تجاوز كل حقيقة تعريفية لها. فهي من الغنى والتنوع، بحيث يصعب، إن لم يستحل تحديد مقوماتها الوجودية، وهي من الاختلاف في المعاني، وتعددية الأبعاد والسّمات، بحيث يستحيل في هذه الحالة ملامسة بنيتها كما هي، فهي في حالة تحول وتغيّر وتفاعل فيما بين مكوناتها، وهي من الحركة في الاتجاهات كلّها، بحيث يستحيل تحديد موقعها وهيأتها. فأي وعي يمكننا البحث في آلياته، ذاك الذي يخص الهوية في جملة مواقعها ومساراتها وأدوارها؟

لقد دأب الكثير من الكتّاب: روائيين وشعراء وقصّاصين ودارسين على تناول موضوعاتهم من منظور ثنائيّاتي، وفي إطار من القدرية المحكومة بمنطق العلاقات المتقابلة والمتصارعة إلى الأبد. فالشخصيات والرموز والمعاني تتجدول، وتُصنّف في خانات محدَّدة سلفاً معتقدياً، وكيفية صياغة المنشود مخطَّط لها مسبقاً. انطلاقاً من يقينية لا تقبل الشك، وعلى أرضية بعثرة المفاهيم، حيث الهوية تتأطر في ثنائيات جامدة.. ولعل إحدى أهم الصور كارثية للواقع الذي نعيشه هنا وهنا، كانت نتاجاً لآلية العمل والتفكير المذكورة. وربما كانت العولمة (وهذه من مفارقات العصر الكبرى) هي صدمة الوعي الأخطر التي نبّهت الأذهان إلى الوعي الشقي: الفردي والاجتماعي، وإلى مستجدات الراهن. فالعولمة لا تنتظر إذناً، ولم تفعل ذلك، ومؤثراتها المادية والمعنوية تعيش بيننا وفينا، ونحن ـ وبدرجات متفاوتة ـ نتعامل معها وبها.. لقد صار ثمة بحث آخر، وانعطاف نحو تصور جديد، وإن لم يستعدّ له ـ يعيشه كل منا، وعلى الصعد كافة؛ فالسياسي (والسياسي العربي خصوصاً) صار مواجهاً لنفسه، ففي عصر الشفافيات الكبرى، وفي ظل تنامي دور وسائل الإعلام، وشبكات الاتصال العابرة للقارات، والمخترقة للحدود القومية، أو المسماة كذلك، وغير ذلك من وسائل الاتصال الجماهيرية والكونية الأخرى (التدفقات البشرية الرحالة والمهاجرة مثلاً في الاتجاهات كلها، وهي تحمل معها أنّى وصلت وحلّت كمية معلومات متنوعة، وصوراً محفوظة

(5) أنظر حول ذلك مثلاً ملف «مابعد الحداثة»، في مجلة **الكرمل الفلسطينية**، العدد 51، 1997.

وملتقطة عما تشاهده هنا وهناك)، لم يعد العسكر بكل وظائفه الأمنية القديمة، ولاسور السلطة المنيع بكل وقائياته الردعية والضبطية، ولا جهاز المراقبة الاحتياطي قادراً على تغييب الحقائق الكبرى، أو تجميل صورة السلطة، وتعزيز القيمة الرمزية للسياسي. لقد صارت الهوية السياسية مخترقة من الداخل، ومنزوعة القداسة والهالة المصنَّعة!

وليس المقصود بذلك أن (إعصار) العولمة، يدفع به ليكون متطابقاً مع شعاراته الشعبوية، صادقاً أكثر مع مبادئه الأولى، فالعولمة ليست بشير خير شعبياً، بقدر ما يكون هذا الإعصار علامة جديدة من نوعها، يلزم المذكور في أن يكون مراعياً المستجدات، وما تقوم عليه من متطلبات، فهي تقوم على أسس متنوعة تسعى إلى جعل مجتمعه مفتوحاً لأهدافها المنشودة. فثمة تحدٍّ جلي لوجوده، لسلطته التي عليها أن تغيّر من أشكالها باتجاه هبوب العولمة لا العكس، أو عليه أن ينخرط أكثر في جملة أواليات استراتيجية اجتماعية وثقافية وسياسية، يعتبر نفسه أول المستهدفين، للإطاحة به. وفي هذه الحالة كذلك تظهر الهوية مغايرة في مفهومها، لمفهومها السابق. وفي الحالتين تتعرض الهوية لأكثر من حالة تشظٍّ قيمية من الداخل. هوية الدولة ذاتها تتغيّر هنا، على الصعيد المؤسساتي، وأداء الأعمال، والتخطيط للمستقبل، وتوظيف القوى البشرية، ثمة شركات عملاقة متعددة الأعمال والغايات متروبولية، ولها عملاؤها في مختلف الدول الأخرى، ومن جنسيات مختلفة، هم شركاء صغار فيها، ونقلة أخبار، ومحطات إعلامية مقيّدة، ويرتهن وجودهم فيها، بقدر دقة أدائهم لأعمالهم ولما هو مطلوب منهم. هنا يظهر كل شيء عائماً، مكشوفاً، الدولة كبنية سرية مغلقة، مبنى وزارة الدفاع، أرشيف الوزارات المؤثرة (الخارجية والداخلية خصوصاً)، كل ذلك يغدو معرضاً للكشف، للمساومة، بقصد تسيير أو تسويق رغبات العولمة، حيث يتراجع مفهوم الدولة كبنيان مقدس، وكلمة سر غير مدركة، إلى الخلف، ويبرز الإعلام المرافق للعولمة، والخادم لها متهتكاً لأسرار الدولة، والذي يغضّ النظر، أو يماطل، أو يناور عما جرى ويجري هنا وهناك، بقدر ما يُسمح لأهدافه في أن تتحقق!

والدول التي لم تقف على قدميها، أو عجزت عن بناء اقتصاد وطني، وتحقيق الديمقراطية الكفيل بضمان قوتها القومية وحمايتها، هي على العكس من الدول الأخرى التي تشكل منابع العولمة. فثمة امتحان مصيري لكل الرموز السياسية في الدول الأولى هنا! وإذا كان السياسي يشكِّل هنا الوجه البارز، الذي يتعرض لأكثر من ضغط عولمتي (إن جاز التعبير)، فالمقابل يغدو الفرد العادي أو ما يسمى بـ (المواطن)، وخصوصاً في الدول المتميِّزة بأنظمة شمولية نهَّابة لمجتمعاتها، أكثر تعرضاً للتغير في هويته، دون أن يدري... فدوره يغدو في هذه الحالة مزدوجاً، إنه من ناحية يصبح، أو قد يصبح مواطناً مرغوباً فيه، ومعتمداً عليه في (دولة) العولمة، إذا اعتبرنا العولمة نظاماً سياسياً واقتصادياً وثقافياً وتربوياً من نوع خاص، عندما يُعطى المجال واسعاً لقدراته في أن تنطلق أو تتحرر من ربقة المحدّد والمقيّد في مجتمعه، وهو يقدم خدماته الكبرى لسلطة

العولمة، ويغدو بالتالي هو نفسه سلعة مسعَّرة، رمزاً متداولاً، مفكراً، أو مسرحياً يمثل دوراً ذا بعد كوني، مرتبطاً بسواه، كمجموعة حلقات كونية الطابع. ومن ناحية ثانية، يصبح أكثر تعرضاً للنهب المعنوي، للاغتراب على صعيدعالمي، وللتصفية، إذا أخطأ مثلاً في أداء المطلوب منه. إنه بشكل ما عميل دولي، وهو يستعرض ويعرض خدماته، قواه النفسية والجسمانية، حيث يستمتع (وخصوصاً في البداية)، بنِعَم العولمة، بامتيازاتها داخل وخارج البلاد، في تسهيل مهماته، والاحتفاء به هنا وهناك، وربما ترقيته لاستلام مناصب لم يكن حتى يحلم بها خارج حدوده (القومية)، ما دام يقدّم ما من شأنه تعزيز رسالة العولمة، ويكون مواطناً صالحاً طيّعاً لديها! وليس رجل الأعمال بعيداً عن مفهوم الهوية الجديد، إنه لم يعد ذلك الرجل الذي يتعامل مع زبائن معروفين (عملاء محليين)، ويدرك حقيقة بضاعته، أو يحيط بخاصيّات عمله من الجوانب كافة، ويكون قادراً على التحكم أحياناً في ظروف عمله. لقد تعدَّى عمله كتاجر، أو كصناعي كبير، وموزع سلع، ورأسمالي فوق القومية حدوده القومية، صار العالم كلّه مجالاً لنشاطه، وصار بحاجة - على الأقل - إلى تعلم أكثر من لغة للتواصل مع (مناطق نفوذه: حيث تصل بضاعته، سلعته)، وهو ولكي يؤكِّد فاعلية مهنته، يتقن دوره، لا بد أن يجيد ما يخصّ أخلاقيات المهنة الجديدة، أي أصول التعامل مع الآخرين، الإلمام ولو بالمبادىء الأولية لعلم النفس، والتسويق المرن، وقوة الإغراء، ولعبة الصفقات.. إلخ، لقد صار هناك زبائن متعددو الأعراق والأجناس واللغات والأمزجة، وهو بحاجة إلى مكاتب ومستشارين ومحامين ومسيرِّي أعمال من داخل البلد وخارجه، كلما كان دوره أكبر. وإذا كان رجل أعمال صغيراً، حيث تنحصر مهمته داخل بلده، فهنا يجب أن يدرك جملة تحدّيات أو أخطار، قد تعرضه للإفلاس في أية لحظة، وليس بوسعه في هذه الحالة مواجهة المسؤول المباشر، فالشبكة الأخطبوطية الضخمة، أشبه بمتاهة، يصعب عليه، إن لم يكن يستحيل تحقيق ما يصبو إليه. كل شيء يتحرك عن بعد، وما هو عن قرب يشكِّل الخطوة الأخيرة، والذين يعرفون أنفسهم في تعددية مهامهم يعتبرون موظفين منزوعي القوة الفاعلة، فهناك سلطة إعلامية، وتقارير تتوزع بلغات شتى، وتغيرات وظائفية، وتغيير أماكن، وتعيين أشخاص جدد بين الحين والآخر، وغياب أو تغييب آخرين دون سابق إنذار، وأسعار ترتفع أو تنخفض، وليس للمستهلك قوة احتجاج، أو ممانعة فاعلة، ووراء كل هاتيك التغيرات والتحولات قوى مؤثرة، وضاغطة، رسمية وخاصة، معلومة، ومجهولة، ولسرية العمل على صور مختلفة عن قيمتها العملية والردعية، إذ إن ذلك يسمح للسلعة في أن تتروج، وللأشخاص الذين في أماكن غير محددة مسبقاً، أو تحدد لاحقاً، ودون سابق إنذار، لا يعرفون بعضهم بعضاً إلا بالإشارات وعبر وسطاء آليين (أجهزة اتصال مختلفة)، أو موظفين لهذا الغرض، واللقاء في خدمة العمل، حيث تُعقَد صفقة ما، أو يتم التحضير لعمل ما، والعلاقة رسمية تماماً حتى لو كان ذلك على مائدة الغداء، أو في حفلة ترفيه تخديمية أو وظيفية بدورها!

القيم نفسها في الحالة هذه تصبح عائمة، فالعلاقات التي تسلعن كل شيء، يكون الإنسان في حقيقته مرهوناً لحركيتها المادية! ومفهوم السلطة لا يعود مرهوناً بما هو داخلي، بقدر ما يتجلى مشبعاً بدلالات أو قوى من جهات شتى، ولا يخضع لقانون ثابت يحدد بنيته، بقدر ما يتمتع باستقلالية ونفوذ ذاتيين، حيث تكون مراكز كثيرة موزعة هنا وهناك تفصح عن قوته.

ولكن ذلك لا يعني تساوي هذه المراكز من حيث الفاعلية، فثمة تفاوت قوى بتفاوت أهمية كل منها. فالإمبريالية التي تفصح عن نفسها بمظاهر وأشكال تطور أكثر فاعلية ونفوذاً، قادرة حتى الآن على تغذية ما يخصّها مباشرة بدعم مركزي أكثر. والمناطق الأكثر ضعفاً هي الأكثر تعرضاً لنهب القوى الممركزة، وبأساليب مستحدثة، هي ذاتها تشارك في هذا النهب القائم، حيث يكون كل ما فيها قابلاً للتسويق وللاستهلاك، الإنسان، والثقافة القومية، وقوة المعتقد... إلخ..

وهوية المثقف هنا تظهر أكثر قابلية للانشطار. فالمثقف لم يعد المرهون لفكرة ضيقة، أو المعبر عن معتقد ضيق، أو يتحرك في إطار جماعة معينة، أو حتى يجد نفسه من خلال وجوده داخل أمة ما، لقد صار واجباً عليه أن يرتقي إلى مستوى الكونية بدوره. وهذا لا يعني أن عليه التخلي عما تعيشه أمته من هموم ومشاكل وتحديات، إنه يعيش معها وبها وفيها. والإشارة إلى كل ذلك عبارة عن تحصيل حاصل، إنما تفرض عليه العولمة ارتحالاً إلى أفكار أكثر وساعة وعمقاً ودلالة في مؤثراتها. فليس بوسع المثقف (أي مثقف) راهناً استيعاب ما يجري حتى في نطاق قرية صغيرة، تعيش آثار العولمة، إن لم يكن على بيّنة مما يجري هنا وهناك، لقد تضاعفت مسؤولياته، وتوجّب عليه معاينة نفسه، ومقاربة حقيقته ككائن يعيش كونية العلاقات، ليعبّر أكثر عما يعيش ويفكر ويهتم به، بقدر ما برزت أهميته أكثر، فما يجري ويتغير بسرعة مذهلة، ويؤثر بأشكال مختلفة، يشكل تحدياً له، لأفكاره، لحقيقته كمثقف، وهو لا يعود ولم يعد مثقفاً إلا بقدر ما يعلو بأفكاره وتطلعاته، ويتعامل مع ما يكتب بمزيد من الحذر والحيطة، ويمنح أفكاره قدرة أكبر في المرونة على الحركة، ومن ثم التعبير عما يجري. فالمثقف الذي كانَه حتى قبل عقدين من الزمن لم يعد مواطناً صالحاً في عالم الكونية، لقد استهلك مفهوماً وقيمة ودوراً ومعنى. فالمستجدات التي ليس بوسعه تجاهلها، هي التي تلزمه بهذا التغير:

أ ـ استهلاك المفهوم، يبرز في اعتباره محدَّداً بجملة صفات معرفية وثقافية يُعرف عليه التحرك في دائرتها. كان ذلك مفهوماً أرسطوياً قائماً على تثبيت الصفات وكأنها جواهر مفارقة، صفات لا تتغير ـ ومثقف اليوم هو أكثر مما تقدم ـ صار هو نفسه شخصية مفهومية، غير قابلة للتحديد. مفهومه هو خروجه على المفهوم، وإلا فلن يكون (منتجاً) لن يكون مؤثراً، إنه يعيش على الضد من كل توقع، يقرأ ويستقرىء العولمة في تنوع مساراتها، لتُدرَك أهميته لمن حوله بالمقابل. أي أن عمله هو «فض الاشتباك بينه

وبين المقولات التي تعيَّش عليها، أو عليه على الأقل التخلّي عن لغته المتحجرة في قراءة الأحداث والتعاطي مع العالم»[6]، بوصفه عالم تغيرات مستمرة، ويعنيه كل ذلك في العمق.

ب ـ واستهلاك القيمة، يتجلى في تلك المأثرة التي كان يعتز بها، إذ كان يرتقي بنفسه إلى مستوى العرافة الذي يعرف كل شيء. والطبيب الذي يفهم مريضه تماماً، ويقدم له الدواء الناجع، وفي ضوء ذلك تكون قيمته فوق مثالية، وفق يقينية صارخة. والنتيجة هي تعاليه على محيطه، حيث كان يقدم نفسه كمنقذ إستثنائي، وبذلك تكون الهوية هنا ذات بعد واحد. ولكن الوضع لم يكن كذلك، وهو اليوم أكثر تحدياً لكل مايفكر فيه. إن قيمته الوحيدة هي أن يقول كلمته، هي ألا يحدد ما يجب على (مريضه) أن يقوم به، ألا يتصرف كطبيب. هي أن يختبر نفسه كذلك كمريض ليعيش الحالة، أن يرى في ما يراه حالة تتطلب استقراء مختلفاً عن كل حالة سابقة، وألاّ يفكر في القيمة، لئلاّ يرتهن لتقدير عابر خدَّاع، أو مكافأة تؤثر في قيمة ما يكتب، وليشعر بقيمة ذاتية لما يكتب، وليس لأن الآخرين يحددون قيمته، ويحتفون به. إنه في حِنْو ذلك يعيش حالة تشظٍّ مستمرة، وفي قلق يتنامى دون توقف. وهي صورة أخرى للهوية، حيث لا صورة محددة «فالتشظّي لا يحتفظ بالهوية إلا كممحوة وليست كظاهرة»[7].

ج ـ واستهلاك الدور. في اعتبار المثقف معبّراً عن لسان حال، وهو لسان حال مستعار. لسان مشحون بالمعتقد الموجه. إنه دور مسرحيٍّ على أكثر تقدير. دور معروف مسبقاً، حيث يقرأ عنه في البطاقة الموزعة على النظّارة. وهو هنا يوجد في مناسبة معينة، وفي حلقة حزبية معينة، وفي برنامج معدّ سلفاً. ولذلك يكون متكلماً استعارياً، يوجد بالوكالة. إنه ذرة معلومة بوظيفتها سلباً أو إيجاباً ـ ويتحدد دوره في الوقت المناسب ـ حيث يحضر أو يغيب وفق قرار معيّن، من سلطة ما، متعددة الأسماء. ومن حيث الهوية هي واحدة ـ وهو يختلف في دوره اليوم ـ فدوره يستحيل تحديده من خلال التوصيفات المذكورة. إنه هو ذاته ليس بوسعه تحديده بدقة، لأنه ينشغل بالتغيرات، ويعيشها، ولذلك فهو الكائن الرحالة، الذي يعيش العالم كله، ويتكلم عندما يجد في ذلك ضرورة نابعة من داخله.. هكذا يتجاوز هويته (الدورية)، يخترق التماثل، فيؤكّد حضوره دون إعلام منه. إنه الحاضر هنا والغائب دون تحديد موعد.. ولذلك يكون لانتظار كلمته القيمة الفاعلة. ويتحدد دوره دون تخطيط خارجي، إنه دور تغيري باستمرار. وهذه هوية مختلفة. و«ما يميِّز الهوية بهذا المعنى هو التفتح وليس الانغلاق، الخروج وليس الدخول...»[8].

(6) علي حرب: **أوهام النُخبة أو نقد المثقف**، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1986 ص 42.

(7) سامي أدهم: **ما بعد الفلسفة: الكاوس، التشظي، الشيطان الأعظم**، ط 1، دار كتابات، بيروت، 1996، ص 291.

(8) عبد السلام بنعبد العالي: **ثقافة الأذن وثقافة العين**، ط 1، دار توبقال، الرباط، 1994، ص 118.

د ـ واستهلاك المعنى يُتحرى عنه في ذلك الوضوح المسبق، الوضوح الذي يفصح عن مادة تقريرية، أو وصائية تتقدم باسمه. لا يعود المعنى هنا قائماً في التغير، في الغياب المنتظر، في الجديد المأمول، في المفاجأة الملهمة المشعة، إنما يكون متجذراً كعلامة مثبتة في النص الذي ساعة يقرأ يعلم بما فيه مباشرة، باعتباره يفصح عن المرغوب فيه جماعياً. هذا المعنى يشكل ميتافيزيقا مقلوبة ـ ممانعة سالبة للمعنى تماماً ـ حيث المثقف الدوري لا يقول إلاّ ما له معنى خارجي، معنى ينتظر منه قوله، بوصفه أداته، لا منتجه الذي يعصى على التحديد. والعولمة هنا تخترق التحديد، وفاعلية المثقف هي في تجريد المعنى من الحضور المرتقب، والمحدد والموصوف، حيث يؤمّم المعنى الذي يعنيه هو لا سواه.

تقوم الهوية هنا كمفهوم على ما ليس هو، إنما على غياب يخص المثقف، ومن هنا تتأتى أهمية الكلمة النافذة فعلياً. هذه الكلمة التي لا تترك في يقينيتها، بقدر ما يرجع إليها، أو تراجع من جديد، لئلا تمتلك في معنى واحد، لئلا يُستبد بها بمعنى ما. إنها تطرح كل مرة بتصور جديد وهي في عالم تغيرات، حيث تنشغل بها الذات، وهي مشغولة بالآخر. فيتجلّى الإبداع المتجدّد في علاقات جديدة، تتغير دون توقف، ويكون حضور الآخر في الذات فاعل إبداع، حيث تكون الذات نفسها انصهاراً بوجوده، وصهراً له من الداخل ـ فيكون المعنى المتجدد دون توقف ـ إنه إغناء الهوية المتنامي هنا. المثقف في هذه الحالة يعيش حيوية القول وفاعلية نقيضه(9)، عنفوان المعنى وشهوة اللامعنى في كل واحد، ودون تفاصل وهذا ما نتلمسه في ممارسات فكرية وثقافية عربية، بالرغم من أنها لم تتجذّر في الواقع اليومي، نظراً لصلابة الدوغمائيات المغذية والمعمول على صعد شتى، ولكنها لم تخف قدرتها على التجلي، ومعايشة الواقع على أكثر من صعيد.

وإذا كان المثقف كما كان سارتر يصفه ذات يوم بأنه الشاهد والشهيد في مجتمعه الممزق، فإن الصفة التي يعرّف بها اليوم هي أكثر دراماتيكية، ولكن حيوية وكونية. إنه المثقف اللاحدودي، العابر لمختلف الحدود، بالرغم من التزامه بقضايا معينة، وهي قضايا تضعه في الصميم. فالكونية أحد أبعاده الكبرى، وهو إذ يكتب منطلقاً من قناعته الذاتية، ويصيغ بناء العالم من حوله، فإنما يفصح عن قوة ضد تأسيسية، فحيث يكون الاستبداد، حتى في أعلى مستوياته، وفي مختلف منافذه، ويكون العنف، يكون حضوره، ويكون قوله، معبّراً عن الإنسان وضده في آن، معه وعنه في كونية مفاهيمه، وانفتاح أبعاده، وضده حين يحيل الآخر إلى بعدٍ من أبعاده، ويشكله على طريقته. ووفق هذا التصور يتفتح التاريخ نفسه، وتنعدم الفواصل التاريخية بين العصور، ويغدو كل مثقف

---

(9) اشير هنا إلى كتاب Jacques Bouveresse: القول ونقيضه **Dire et ne rien dire**. وهو يتحدث عن اللامعقول، اللاممكن، اللامعنى L'illogisme, L'impossibilité et le non-sens, Édition Jacqueline Chambon, Nimes, 1997.

مشغولاً في كتابته بهواجس وهموم وفضاءات العولمة، ما دام يعيش الكونية في كلمته المنطوقة والمكتوبة.

فـ «هيراقليطس، وابن العربي، وابن الراوندي، والمعري، وإدوارد سعيد، وبارت، ودريدا، ودولوز، وفوكو... إلخ» يتعايشون عالمياً، رغم الفواصل الزمنية فيما بينهم. الحضور الكوني للمثقف هو حضور الفعل القولي وتأثيره المتنامي. إن بارت، ألتوسير، شتراوس، فوكو، دريدا، دولوز، غودولييه، دوبرييه... إلخ يُقرأون اليوم عربياً عبر (الجابري، حسن قبيسي، نصر حامد أبي زيد، مطاع صفدي، علي حرب، الخطيبي... إلخ). العولمة تحدٍّ كبير لفاعلية المثقف، إنها ـ لما فيها من شرانية مشعة ـ فاعل معرفي مفيستوفيليسي(*)، جامعة بين الأصوات المثقفة رغم تنوع مواقعها الجغرافية ولغاتها. لقد صار التاريخ هنا المصارع الأكبر للجغرافيا، وفي الوقت نفسه، لقد دفعت الجغرافية إلى أن يصحو أكثر، إلى معاينتها بصورة أكثر كونية وتعمقاً.

فالمخاطر التي لا تحصى تفرض مثل هذه المقاربة والمعاينة. لقد أصبح الانغلاق على الذات الموت المهدد للمثقف كمعنى[10]. العولمة في طغيانها الكوني بدأت تشعر البشرية في العمق بمأساة الآتي، صارت رحماً يولد أجناساً مختلفة، مصيرها إلى واحد. حيث صرنا نشهد في العمق كذلك تحوّل الإنسان المعرّف بوطن وانتماء قومي، وربما رابطة حزبية وغيرها، إلى إنسان منزوع من الكثير من الروابط ـ ثمة عصر الإنسان الرحالة ـ بحيث صارت الهوية الهم الأصغر لدى الكثيرين، إنها لم تعد محدّدة لانتمائه، في زمن اختراق الحدود والمؤسسات التي تعتبر قومية، وقوتها تتجسد في سرية مهامها، ظهرت مؤسسات من نوع آخر أشبه بالكثبان الرملية المتحركة، وهي تحمل معها وفي داخلها أفراداً من جنسيات مختلفة. لقد صار العالم مألوفاً لدى نسبة كبيرة من البشر، وبالعين المجردة. فحين يكون الإنسان يلاقي في وطنه مفهوم المؤسسة الكلاسيكي بكل مسمياتها لم يعد قادراً على الاستمرار بنجاح، والدولة نفسها لم تعد قادرة على صيانة (حرمتها) كما تدّعي ـ هنا وهناك ـ فبوسع المرء أنّى كان إذا أوتي قوة حركة معيّنة أن يغادرها، ويتخلى عن هويته نفسها، كما يحصل لدى الكثيرين، أولئك الذين حوّلوا المنافي إلى أوطان بديلة لهم، وابتغوا الاستقرار الأبدي فيها.

العولمة ـ العرب ـ الهوية

ثمة استحداثيات كثيرة تدفع بالمهتم بما يجري في المنطقة العربية، وما يجاورها، وإحداثيات مختلفة: سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية، تفصح عن حالات التغيّر

(*) مفيستو فيليسي Mephistophélique = شيطاني.

(10) أنظر حول ذلك: ريجيس دوبريه ـ جان زيغلر كي لا نستسلم، ترجمة، رينيه الحايك، بسام حجار،ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1995، ص 75 ـ 94 بصورة خاصة.

العديدة التي تتعرض لها المنطقة المذكورة، ودول الجوار. العولمة في مضمونها المعتقدي والثقافي هي نزع الانغلاق والتقوقع والخفاء، إنها بوسعها اختراق الأسوار من جهات مختلفة، دون سابق إنذار. فهي ذاتها صيغة إنذارية لوضعية علاقات بشرية جديدة لا سابقة لها. فرجل الأعمال الذي يقيم مؤسساته المالية والتقانية: الإعلامية والصناعية والفنية مخترقاً الحدود، انطلاقاً من أقنية تبدو رسمية، معترَف بها هنا وهناك قوة ضاغطة، إنه سلطة فاعلة متحركة، ومهددة عند اللزوم لأمن البلد، ومراقبة كل نشاط اقتصادي، ومدركة لما يجري هنا وهناك. إنه قبل كل شيء متروبولي السمات أو يعتبر مواطناً متروبولياً في النهاية، حتى لو كان ينتمي جنسية إلى (عالم) الجنوب..

ثمة تفكيك لسياسات قديمة، وإقامة لسياسات جديدة، ومن داخل البلد المعني نفسه، دون نسيان الوظيفة الإعلامية المزدوجة في البلد الخاضع لرعائيات ووصائيات العولمة: الحديث عن فضائل هذا النظام أو ذاك، وتجميله، وغض النظر عن ممارساته العنفية ضد أبنائه (مواطنيه)، فغالباً ما يُمدح ممثل النظام، لا لأنه خير من يعبّر عن المرحلة الجديدة، ويمهّد لمستقبل واعد، وتنمية منتظرة، وإنما لأنه ينمي تخلفاً كارثياً في العمق. فالحديث عن الديمقراطية الذي قد يعتقد البعض أنها من ثمار العولمة هو من قبيل الوهم ـ العولمة لا تعد العالم بالديمقراطية ـ الديمقراطية هي آخر سلاح يمكن استعماله ضد دولة ما تمانع تغلغلها في أراضيها، أو تنغلق على نفسها في وجهها، ولذلك ـ وبما أنها سلاح ـ فهي لا تنبني على ديمقراطية حيث يكون الإنسان الهدف المنشود لها.

ولعل العرب مدركون لفاعلية العولمة ـ وقد لا نبالغ إذا قلنا إن حرب الخليج الأولى، والثانية التي تمّت دون إطلاق رصاصة واحدة كتهديد معنوي، كشفت عن الوجه اليانوسي للعولمة، فمنتجات العولمة من تقنيات استهلاكية سريعة العطب، والميل الهابط للدخل القومي باضطراد ونزيف رؤوس الأموال، وتنامي إحصائيات البؤس والبطالة والعنف والموت في المنطقة، أمثلة صارخة عن عصر العولمة الذي بلغنا بامتياز. هناك انحدار كهفي نحو تصحّر اجتماعي/قيمي/معنوي، يكشفه هذا الاختلال الكارثي في إحداثيات النمو الاقتصادي، وبؤس وسائل الإعلام العربية وخواء الوعود المستقبلية. فالمنطقة بأجمعها متجهة نحو عطالة مزمنة. جغرافية، حيث تنهب الأرض بهمجية غير مألوفة (من تحت ومن فوق)، ولا توضع استراتيجيات نمو مستقبلية، وتاريخية، حيث الوعي التاريخي يتجه نحو أمية عمياء، تغيّب قيمة دراسة كل مرحلة تاريخية ما وقيمية: حيث ينزع الإنسان بالتدريج من موقعه، من مكانه مجرداً من الأمان النسبي ـ حيث تنعدم بصورة فعلية الأمثلة الواقعية التي تعد إنسان المنطقة بحياة مأمولة ـ وجزر السعادة الفردوسية التي تتوزع هنا وهناك في طور الضمور أو التشظي!

ولعل المتمعن في حركة الرأسمال العربي، يلاحظ مدى كثافته من جهة، وهو يتجمع في مصارف أجنبية، وتحت أسماء معلومة وسرية، وحالة الإفقار المتنامية لدى نسب كبيرة، وهي تزداد بدرجات متفاوتة من جهة ثانية، والديون المتزايدة التي تتراكم في بلدان عربية كثيرة، والعجز في ميزانياتها، كل ذلك يفصح عما أشرنا إليه، أو تحدثنا عنه حيث ظهر اقتصاد من نوع جديد، يتنامى باضطراد هو اقتصاد النهب اللوجستي (الشرعي) تحت يافطات عديدة، وموجة العنف المتعدّد الأشكال الذي يجتاح المنطقة، وصرخات المندوبين المكبوتة وآمالهم الميتافيزيقية، وتزايدهم، ومظاهر الدروشة السلبية، واستهلاكيات السلع الرخيصة القصيرة العمر، تدخل في ظل العولمة المتنامية هنا وهناك.

وما نقوله هنا لا يدخل في إطار النظرة التشاؤمية واليأس، بقدر ما يعبر عن واقع الحال. ولعل أقصى حالات التشاؤم هي بداية التفاؤل، ولكن شريطة توفر الإرادات القادرة على الانتقال من حالة الإمكان إلى الفعل. فالعالم يشهد تكتلات عالية المستوى، من خلال اندماج هويات مختلفة، لتشكيل قوى تؤمن مناطق نفوذ لها أكثر نفعاً. وفي ضوء ذلك يتشكل مفهوم جديد للدولة ذاتها ـ فبقدر ما تنسحب إلى الخلف كنظام وقوة معبِّرة عن تمايزها، وتعطي المجال واسعاً لشركات متعددة الوظائف، عبرها تتجذر داخلها وخارجها، فتتدخل عند اللزوم (في حال أميركا مثلاً)، واتحاد دولي فوق القومية تعبيراً عن مستجدات المرحلة القادمة (في حال دول أوروبا الغربية خصوصاً)، حيث صار للزمن بعد عمقي، وقيمة أكبر من ذي قبل. إنه سباق على الزمن، وفي تنفيذ الخطط التي تفتح المجال واسعاً للسيطرة على المستقبل، والتحكم بالمناطق التي تمتلك استعداداً جلياً للتبعية، وتكون قابلة للنهب المنظّم.

وفي هذا المسار، لا يكون تعبير (إمبريالية الفوضى)، أو (الهمجية أعلى مراحل الإمبريالية) دقيقاً كما يكتب سمير أمين، إنما الرأسمالية تجدِّد نفسها، حسب تعبير فؤاد مرسي، وهي لا تكتفي هنا بتجديد نفسها، بقدر ما تضيف إلى نفسها ما يجعلها رأسمالية أعلى مما كانته سابقاً، وكأنها مخالفة لما كانته، ولو لم تكن كذلك، لما كان لها هذا الحضور الفاعل. ولو أنها كانت إمبريالية الفوضى، لعجزت عن الاستمرار، وكذلك فإن نعتها بالهمجية، يفقر مفهومها، لا لأنها بريئة من ممارسة هذا الأسلوب، وإنما لأنها لو كانت هكذا تماماً لقضت على نفسها بنفسها بالفعل!

فالرأسمالية كتصور، وكمفهوم، وكثقافة تنامى حضورها الكوني أكثر، وهذا يرجع إلى المرونة الهائلة التي تميزت وتتميز بها، إضافة إلى الميكانيزم الداخلي للمبدأ الذي قامت عليه، ذاك الذي يخاطب الإنسان في رغباته وطموحاته. فبوسع الإنسان (أي إنسان) أن يغدو سيداً، آمراً، ناهياً، صاحب اسم، له صيته، وسلطته المؤثرة، إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولكنه في الحالة هذه عليه أن يقاوم، ويمارس أساليب مختلفة ليصبح هكذا (تكون المناورة والمراوغة واقتناص الفرص وجوهاً واحدة لذلك)، ولكنه ـ

كذلك ـ وبالمقابل عليه إدراك ما في الحياة من صراع قوى ذاتية، وتنازع رغبات وتضاد أهواء، وفي ضوء ذلك قد يصبح مأموراً، ويغدو عبداً لسواه، وتابعاً، ويرتبط مصيره به، وهو يدور في فلكه: شخصاً، أم جماعة، أو شعباً أحياناً، حيث تتنوع فئاته في التابعية هنا، من ناحية الامتيازات، ولتكون سلطة الإخضاع أكثر تحكماً وامتلاكاً لمصيره. ولقد كانت الاشتراكية كحلم وكطموح وكهاجس الميكانيزم الرغبي للملايين من البشر، ومحرضها في نيل حقوقها، وبناء آمالها القومية وسواها.

ولكن ـ وكما يظهر من التجارب التي تمت وتتم حتى الآن ـ نزعت ولا تزال تنزع في جوهر ممارساتها إلى نزع الإنسان من ذاته أكثر مما يجب، لتحيله إلى ذات مفارقة لجوهرها، ذات مقلوبة، يغدو صاحبها ناطقاً بما يتجاوزه ويهمه، ليغترب عن ذلك ذاتياً. ومن هنا بدت العولمة التجلي الأكبر لرأسمالية ليست مجددة لنفسها فحسب، كما أنها ليست أحادية البعد على صعيد القيمة التاريخية الرمزية، وإنما الوليد الأكبر والأكثر إغراء، واحتفاء بالمفاجآت، والتي من إحدى علاماتها الفارقة هي تلك الصفة التي تحملها بين جنبيها (كونيتها) المنشودة، وذلك بالاعتماد على (جيش لَجِب) من الرموز الثقافية والتقنية...

إضافة إلى إعلام متعدّد الطيات، فاعل، وهو لدرجة إتقانه المذهلة، يكاد يوحي حتى لمن يوجه ضده أنه الناطق بلسان الحقيقة. إنه إعلام يقوم على أرضية قوة تاريخية، تجلّت فيها وحدة إرادات اجتماعية (رأسمالية)، وإثارة مشاعر، واستقطابها من خارجها (بالمعنى الطبقي الواسع)، ومن خارج حدودها سواء بالقوة (بداية) ومن ثم بالإدارة المؤثرة لاحقاً، المرآوية هي أثر تاريخي بارز من آثارها راهناً. وكل إنتاج يخصّها يستقدم هذه المرآوية، ويتحرك في ظلها معتقدياً. من هنا صار بالإمكان الجمع على أكثر من صعيد بين الإمبريالية والثقافة التي تعبّر عنها في الخفاء أكثر(11).

العرب في الحضور الإمبريالي الذي يتجذر كحقيقة كونياً باضطراد، يعيشون كقوى مفكّكة، قوى لا تخفي خوفها أحياناً من طغيان سلطة العولمة، وتأثيرها الساحق على مصيرهم كوجود رمزياً، وفي العمق. ولكن الخوف هذا لا يفصح عن حرص شمولي، الخوف على المصير لأمة هي قيد التبعثر الكيفي، والتفكيك الكمّي، والسياسي هو أكثر هؤلاء تجاهلاً لحقيقة الوضع. فحقبة التسعينات تشكل التحدي الأكبر تاريخياً لحضورهم تاريخياً، ولمصيرهم لاحقاً، إنه منخرط بدوره في عالم حاكميته الشهوي على أكثر من صعيد. وهو لايزال يقدم نفسه بوصفه الناطق بلسان حال الأمة، وممثلها الأوحد، على الرغم من انهيارها كمعنى في أكثر من مجال. فتفكيك القوى الشعبية، وتمييع الإرادات العامة في أكثر من منحى، وتكوين مراكز سلطويّة اجتماعية وظيفية هي

(11) أنظر حول ذلك: ادوارد سعيد: **الثقافة والإمبريالية**، نقله إلى العربية وقدّم له كمال أبو ديب، ط1، دار الآداب، بيروت، 1997، الفصل الأول مثلاً.

في العمق تخدم أهدافاً فئوية، والتركيز على غايات اجتماعية اقتصادية السمة، تخلّ بالنظام الاجتماعي العام، وتوليف مفاهيم جديدة للتاريخ وللثقافة وللتربية، كلها تعتبر المجال الأرحب لتنامي سلعة العولمة، بحيث تغدو مفاهيم أخرى، رهن عليها كثيراً: كالقومية، ووحدة المصلحة الوطنية، والتنمية المجتمعية، والتقدم القاعدي... الخ مفرّغة من محتواها، منزوعة القيمة...

والحديث عن محاولات (محدودة على كل حال) عربية هنا وهناك، تعبيراً عن إرادة هوية مشتركة لا يعبر عن المأمول في حده الأدنى[12]. ثمة مشاكل وأزمات مستفحلة، وتشكل تحدياً داخلياً للنظام السياسي العربي، في ظل تهميش قيمة المواطن بازدياد، وهي تضاعف من مساحة العنف الرمزي والضغط التاريخي واللامفكر فيه، كالديمقراطية المؤجلة باستمرار فعلياً، وحقيقة خطط التنمية الاقتصادية الشاملة، وما يسمى بقضايا الأقليات التي تُهمل، أو تُعالج بصورة محدودة وعابرة، والمستقبل وما يكونه... إلخ.

وليس المثقف العربي بأقل مسؤولية من السياسي العربي، إنه لم يعد يحتاج إلى ممارسة شعاراتية، وإلى تنظير إيديولوجي (إذا كان هناك تنظير إيديولوجي عربي منظم وفعلي)، وإلى استخدام لغة وصائية، أو مواربة في التعبير عن وجوده. ولقد كشف هذا العقد الذي نعيشه عن مدى الغبن الذي نعيشه، والموقع الكراكوزي الذي يشغله. فهو في امتلاكه لصفة المثقف، تجلى موظفاً، ومن الدرجة الدنيا لصالح ما يضاد صفته تلك، لقد تجلى منزوع الإرادة على أكثر من صعيد، وفي الوقت نفسه مأخوذاً بإغوائية السلطة، والنسب السلطوي، وشهوة المركز، وهاجس الشهرة، ولكن بطريقته الخاصة، بحيث بدت (أو ظهرت بصورة أدق) ثقافته وسيلة ملهمة لتحقيق رغباته الدنيوية الخاصة به.

ومن هنا كان سؤال: هل هناك مثقف عربي جائزاً، وما جدوى أن تكون مثقفاً اليوم خصوصاً جائزاً أكثر... لأن العولمة ـ كما تحدثنا عنها ـ هي أكثر من تغيير للشكل، إنها تبتغي تغيير جوهر الإنسان نفسه، تجويفه فعلياً. أوليس من حقنا في ضوء ما تقدم القول: إن هناك انشطاراً في الهوية، لكل من يعتبر نفسه من أولي الأمر في المنطقة قبل كل شيء ؟.

(12) انظر حول ذلك: مقال محمد الأطرش: «العرب والعولمة: ما العمل؟»، في مجلة **المستقبل العربي**، العدد (229)، 3 ـ 1998. إن مساحة الأمل التي يضيئها لنا في مقاله، لا تشفع لنا بصورة كافية. ويكون سؤال: ما العمل رغبياً أكثر مما يجب بالرغم مما فيه من تحريض على العمل!.